



الإمام الطبري .. رائد مدرسة التفسير

يعتبر الإمام الطبري من أبرز المفسرين والمؤرخين في التاريخ الإسلامي، حيث اشتهر بكتابه "تفسير الطبري"، و"تاريخ الطبري"، وهو عالم جمع بين علوم التفسير والفقه والتأريخ وعرف بميله لعدم التقليد، حيث استطاع أن يوظف جملة من علومه في الفقه واللغة والدين والعقائد، في أن يخرج بتفسيره الذي صار مرجعا إلى اليوم.

كان الإمام الطبري أكثر علماء عصره همّة في طلب العلم وتحصيله وزهدا في الدنيا، وفي تأليف أمهات الكتب، ومن كبار مؤرخي الأمة الإسلامية ورائد مدرسة التفسير، فمن أبرز المفسرين والمؤرخين المسلمين.

ولد في مدينة "أمل" بطبرستان (جنوب بحر قزوين) ونشأ بها في كنف والده الذي اهتم به منذ الصغر، حيث رأى فيه ذكاء ونبوغا وحبا للعلم. وبهذا استطاع أن يحفظ القرآن في السابعة من عمره، وتوجه بعدها إلى مدارس العلماء والفقهاء ليأخذ منهم، وقد خصص له والده المال الكافي ليكمل تعليمه بأفضل وجه. وقد انعكست معارف الطبري وقدرته على الحفظ وموهبته في مؤلفاته.

اسمه ومولده ونشأته

هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري رحمه الله تعالى، يُكنى بأبي جعفر، وعُرف بذلك، واتفق المؤرخون على أنه لم يكن له ولد يسمى بجعفر، بل إنه لم يتزوج أصلا، ولكنه تكبى التزاما بأداب الشرع الحنيف، فقد كان النبي ﷺ يُطلق الكُنى على أصحابه.

وُلد سنة 224هـ / 839م، وكانت ولادته بـ"أمل" عاصمة إقليم طبرستان. ونشأ في هذه المدينة، وتربى في أحضان والده الذي غمره برعايته، وتفرد فيه النباهة والذكاء والرغبة في العلم فتولى العناية به ووجّهه منذ الطفولة إلى حفظ القرآن الكريم، كما هي عادة المسلمين في مناهج التربية الإسلامية.

الطبري الطفل ورؤيا الوالد

ويقال أن والده رأى رؤيا تفاعل بها خيرا عند تأويلها. فقد رأى أبوه رؤيا في منامه أن ابنه واقف بين يدي الرسول ﷺ ومعه مخللة مملوءة بالأحجار، وهو يرمي بين يدي رسول الله ﷺ، وقصّ الأب على مُعَبِّرٍ رؤياه فقال له: "إن ابنك إن كبر نصح في دينه، وذنب عن شريعة ربه.



حفظ القرآن في سبع وصلّى بالناس في ثمان

وظهرت على الطبري في طفولته سمات النبوغ الفكري، وبدت عليه مخايل التفتح الحاد والذكاء الخارق والعقل المتقدم، والملكات الممتازة، وأدرك والده ذلك فعمل على تنميتها وحرص على الإفادة والاستفادة منها، فوجّهه إلى العلماء ومعاهد الدراسة، وساعده على استغلال كل هذه الطاقات دون أن يشغله بشيء من شئون الحياة ومطالبها، وخصص له المال للإنفاق على العلم والتعلم، وسرعان ما حقق الطبري أحلام والده، وزاد له في آماله وطموحه.

وقد حرص والده على إعانتة على طلب العلم منذ صباه، ودفعه إلى تحصيله، فما كاد الصبي الصغير يبلغ السن التي تؤهله للتعليم، حتى قدمه والده إلى علماء أمل، وشاهدته دروب المدينة ذاهبًا آيبًا يتأبط دواته وقرطاسه. وسرعان ما تفتح عقله، وبدت عليه مخايل النبوغ والاجتهاد، حتى قال عن نفسه: “حفظت القرآن ولي سبع سنين، وصليت بالناس وأنا ابن ثمان سنين، وكتبت الحديث وأنا في التاسعة”.

رحلته في طلب العلم

بدأ الإمام الطبري طريقه بحفظ القرآن وتعلم القراءات، على يد علماء بلده، ولما ترعرع رحل في سنة 240 هـ، طلباً للمزيد من العلم، ودخل البصرة فجلس بين يدي علمائها، وأخذ عن شيوخها كمحمد بن بشار المعروف ببندار، ومحمد بن الأعلى الصنعاني، ثم رحل إلى الشام، وقرأ القرآن ببيروت على العباس بن الوليد، وارتحل منها إلى المدينة المنورة وسمع من مشايخها، ثم سافر إلى مصر سنة 253 هـ، وأخذ عن محمد بن إسحاق بن خزيمة، وتلقى عن يونس بن عبد الأعلى، والربيع بن سليمان صاحب الشافعي، وغيرهم.

ورحل إلى الري وخراسان وطاف بالبلاد وجد في الأخذ عن علمائها وكبار الفقهاء، حتى تضلع في العلم وصار من أفراد الدهر علما وذكاء وتصنيفا، واستقر في أواخر أمره ببغداد، وانقطع للدرس والتأليف وقد شغله كل ذلك عن أن يتزوج أو أن ينشغل بمطالب الحياة، فعاش عزبا - رحمه الله - يقول الطبري عن نفسه: “ما حلت سراويلي على حرام ولا حلال قط”.

أخلاقه وصفاته وملكاته

تمتع الإمام الطبري رحمه الله تعالى بمواهب فطرية متميزة، جبله الله الكريم عليها، وتفضل عليه بها، كما حفلت حياته بمجموعة من الصفات الحميدة، والأخلاق الفاضلة، والسيرة المشرفة، ومن هذه الصفات:



- **نبوغه وذكاؤه:** كان الطبري -رحمه الله- موهوب الغرائز، وقد حباه الله تعالى بذكاء خارق، وعقل متقد، وذهن حاد، وحافظة نادرة، وهذا ما لاحظته فيه والده. ومما يدل على هذا الذكاء أنه حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين، وصلى بالناس وهو ابن ثماني سنين، وكتب الحديث وهو ابن تسع سنين.

- **قدرته الخارقة على الحفظ:** كان الطبري رحمه الله يتمتع بحافظة نادرة، ويجمع عدة علوم، ويحفظ موضوعاتها وأدلتها وشواهدا، وإن كُتِبَ التي وصلتنا لأكثر دليل على ذلك، حتى قال عنه أبو الحسن عبد الله بن أحمد بن المفلس: "والله إني لأظن أبا جعفر الطبري قد نسي مما حفظ إلى أن مات ما حفظه فلان طول عمره".

- **ورعه وزهده:** كان الطبري على جانب كبير من الورع والزهد والحذر من الحرام، والبُعد عن مواطن الشُّبه، واجتناب محارم الله تعالى، والخوف منه، والاعتصام في المعيشة على ما يَرِدُهُ من ريع أرضه وبستانه الذي خَلَفَهُ له والده.

- **عفته وإباؤه:** كان الطبري عفيف اللسان، يحفظه عن كل إيذاء، لأن فعل اللسان قد يتجاوز في بعض الأحيان السنان، ولأن جرح السيف قد يُشفي ويبرأ، ولكن هيهات أن يُشفى جرح اللسان. وكان الطبري متوقفاً عن الأخلاق التي لا تليق بأهل العلم ولا يؤثرها إلى أن مات. وكان عفيف النفس أكثر من ذلك، فهو مع زهده لا يسأل أحداً، مهما ضاقت به النوائب، ويعفُّ عن أموال الناس، ويرفع عن العطايا.

- **تواضعه وعفوه:** كان الطبري شديد التواضع لأصحابه وزواره وطلابه، دون أن يتكبر بمكانته، أو يتعالى بعلمه، أو يتعظم على غيره، فكان يُدعى إلى الدعوة فيمضي إليها، ويُسأل في الوليمة فيجيب إليها. وكان لا يحمل الحقد والضغينة لأحد، وله نفس راضية، يتجاوز عن أخطأ في حقه، ويعفو عن أساء إليه.

شيوخه وتلامذته

من أشهر شيوخ الطبري: محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، وإسحاق بن أبي إسرائيل، وأحمد بن منيع البغوي، ومحمد بن حميد الرازي، وأبو همام الوليد بن شجاع، وأبو كريب محمد بن العلاء، ويعقوب بن إبراهيم الدورقي، وأبو سعيد الأشج، وعمرو بن علي، ومحمد بن بشار، ومحمد بن المثني، وخلق كثير نحوهم من أهل العراق والشام ومصر.



ومن أشهر تلامذته: أحمد بن كامل القاضي، ومحمد بن عبد الله الشافعي، ومخلد بن جعفر، وأحمد بن عبد الله بن الحسين الجُبَني الكُبائي، وأحمد بن موسى بن العباس التميمي، وعبد الله بن أحمد الفرغاني، وعبد الواحد بن عمر بن محمد أبو طاهر البغدادي البزاز، ومحمد بن أحمد بن عمر أبو بكر الضرير الرملي، ومحمد بن محمد بن فيروز، وخلق كثير غيرهم.

نشاطه العلمي ومؤلفاته

ترك لنا الطبري ثروة علمية تدل على غزارة علمه، وسعة ثقافته، ودقته في اختيار العلوم الشرعية والأحكام المتعلقة بها، وكان له قلم سيّال، ونَفَس طويل، وصبر في البحث والدرس، فكان يعتكف على التصنيف، وكتابة الموسوعات العلمية في صنوف العلوم، مع ما منَّ الله عليه من ذكاء خارق، وعقل راجح متفتح، وجَلَد على تحمل المشاق، ومن هذه المؤلفات:

- جامع البيان في تأويل القرآن، المعروف بتفسير الطبري.

- تاريخ الأمم والملوك، المعروف بتاريخ الطبري.

- كتاب ذيل المذيل

- اختلاف علماء الأمصار في أحكام شرائع الإسلام، المعروف باختلاف الفقهاء وهو في علم الخلاف

- لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام، وهو كتاب فقه في المذهب الجريري.

- الخفيف في أحكام شرائع الإسلام، وهو في تاريخ الفقه

- بسط القول في أحكام شرائع الإسلام، وهو في تاريخ الفقه الإسلامي ورجاله وأبوابه

- تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار، وسماه القفطي (شرح الآثار) وهو كتاب في الحديث، بقيت منه بقايا طُبعت في أربع مجلدات.

- آداب القضاة، وهو في الفقه عن أحكام القضاء وأخبار القضاة

- 10 - أدب النفوس الجيدة والأخلاق الحميدة

- كتاب المسند المجرد، ذكر فيه الطبري حديثه عن الشيوخ، بما قرأه على الناس



- الرد على ذي الأسفار، وهو ردُّ على داود بن علي الأصبهاني مؤسس المذهب الظاهري
- كتاب القراءات وتنزيل القرآن، ويوجد منه نسخة خطية في الأزهر.
- صريح السنة، وهي رسالة في عدة أوراق في أصول الدين
- البصير في معالم الدين. وهو رسالة في أصول الدين، كتبها لأهل طبرستان فيما وقع بينهم من الخلاف في الاسم والمسمى، وذكر مذاهب أهل البدع، والرد عليهم
- فضائل علي بن أبي طالب، وهو كتاب في الحديث والتراجم، ولم يتمه الطبري رحمه الله
- فضائل أبي بكر الصديق وعمر، ولم يتمه
- فضائل العباس، ولم يتمه
- كتاب في عبارة الرؤيا في الحديث، ولم يتمه.
- مختصر مناسك الحج.
- مختصر الفرائض.
- الرد على ابن عبد الحكم على مالك، في علم الخلاف والفقہ المقارن.
- الموجز في الأصول، ابتدأه برسالة الأخلاق، ولم يتمه
- 24 - الرمي بالنشاب، أو رمي القوس، وهو كتاب صغير، ويُشك في نسبه إلى الطبري.
- الرسالة في أصول الفقه.
- العدد والتنزيل.
- مسند ابن عباس. ولعله الجزء الخاص من كتاب (تهذيب الآثار)، وطبعت البقية الباقية منه في مجلدين.
- كتاب المسترشد.
- اختيار من أقاويل الفقهاء.



منهجه في التفسير

لخص الأستاذ محمد محمود الحلبي منهج الطبري باختصار فقال: “وهو تفسير ذو منهج خاص، يذكر الآية أو الآيات من القرآن، ثم يعقبها بذكر أشهر الأقوال التي أثرت عن الصحابة والتابعين من سلف الأمة في تفسيرها، ثم يورد بعد ذلك روايات أخرى متفاوتة الدرجة في الثقة والقوة في الآية كلها أو في بعض أجزائها بناءً على خلاف في القراءة أو اختلاف في التأويل، ثم يعقب على كل ذلك بالترجيح بين الروايات واختيار أولها بالتقدمة، وأحقها بالإثارة، ثم ينتقل إلى آية أخرى فينهج نفس النهج: عارضاً ثم ناقداً ثم مرجحاً”.

“وهو إذ ينقد أو يرجح يردُّ النقد أو الترجيح إلى مقاييس تاريخية من حال رجال السند في القوة والضعف، أو إلى مقاييس علمية وفنية: من الاحتكام إلى اللغة التي نزل بها الكتاب، نصوصها وأقوال شعرائها، ومن نقد القراءة وتوثيقها أو تضعيفها، ومن رجوع إلى ما تقر بين العلماء من أصول العقائد، أو أصول الأحكام أو غيرها من ضروب المعارف التي أحاط بها ابن جرير، وجمع فيها مادة لم تجتمع لكثير من غيره من كبار علماء عصره”.

تفسير الطبري

في كتابه تفسير الطبري، هو صاحب جهد غير مسبوق، حيث يعد أول من نظم مختلف مراحل التفسير في ضوء ما توفر له من مادة تفسيرية غزيرة في عصره، وقد أسس بهذا لمنهج سار عليه من بعده.

ويجمع تفسيره بين المعنى والتأويل واللغة وأشهر الأقوال حول مدلول الآيات والإعراب، بحيث أنه مزيج بين التأريخ والنقل والاقتناس واللغة والأسانيد والترجيح، لكنه يكشف عن موهبة نادرة وصبر كبير على هذا العمل الذي استغرق منذ سنوات كثيرة يقال إنها وصلت أربعين سنة.

وقد أوضح الطبري أن مقصوده من تفسير القرآن الكريم هو تبين الوجوه المحتملة للآيات، واستقصاء هذه الوجوه فقال: “إذ كان الذي قصدنا له في كتابنا هذا البيان عن وجوه تأويل آي القرآن دون وجوه قراءتها”.

تاريخ الطبري

استطاع الإمام الطبري أن يوظف جملة من علومه في الفقه واللغة والدين والعقائد، في أن يخرج بتفسيره الذي صار مرجعاً إلى اليوم، كذلك تأليفاً لكتابه تاريخ الطبري.



ويعتبر تاريخ الأمم والملوك أو "تاريخ الرسل والملوك" المعروف بـ "تاريخ الطبري"، من الكتب المرجعية في مجاله، وسابق في فكرته، ويؤرخ للعالم من بدء الخلق إلى نهاية سنة 302 هجرية، من قصة آدم إلى الزمن الذي عاصره الطبري.

ويقوم الكتاب على طريق الأخبار بالتسلسل وذكر الأسانيد، وطبع الكتاب مرات عديدة واهتم به [المستشرقون](#) كثيراً لتفرد موضوعه وسابقيته.

قال فيه العلماء

قال عنه [ابن كثير](#): "كان أحد أئمة الإسلام علمًا وعملاً بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ". وقال [الإمام الذهبي](#): "الإمام الجليل، المفسر أبو جعفر، صاحب التصانيف الباهرة... من كبار أئمة الإسلام المعتمدين". وقال عنه [الذهبي](#) أيضًا: "كان ثقة حافظًا صادقًا، رأسًا في التفسير، إمامًا في الفقه والإجماع والاختلاف، علامة في التاريخ وأبام الناس، عارفًا بالقراءات واللغة، وغير ذلك".

وقال عنه [ياقوت الحموي](#): "أبو جعفر الطبري المحدث، الفقيه، المقرئ، المؤرخ، المعروف، المشهور". وقال [الخطيب البغدادي](#): "كان أحد أئمة العلماء، يُحکم بقوله، ويُرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظًا لكتاب الله، عارفًا بالقراءات كلها، بصيرًا بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالمًا بالسنن وطرقها: صحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم...، عارفًا بأبام الناس وأخبارهم".

وقال [القفطي](#): "العالم الكامل، الفقيه، المقرئ، النحوي، اللغوي، الحافظ، الإخباري، جامع العلوم، لم يُر في فنونه مثله، وصنف التصانيف الكبار". وقال عنه [محمد بن إسحاق بن خزيمة](#): "ما أعلم على الأرض أعلم من محمد بن جرير". وقال عنه [ابن تغري بردي](#): "وهو أحد أئمة العلم، يُحکم بقوله، ويُرجع إلى رأيه، وكان متفنيًا في علوم كثيرة، وكان واحد عصره".

قالوا في مؤلفاته

كما ان للعلماء آراء في مؤلفاته، فقد احتل "تفسير الطبري" سويداء القلب عند العلماء على مر العصور في القديم والحديث، وحظي بالرعاية والعناية، وأثنى عليه الأئمة والعلماء والمؤرخون والمفسرون، وسطروا الجمل المذهبة حوله، وعلقوا عليه أوسمة الفخار.



قال عنه الإمام النووي: “لم يصنف أحد مثله. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: “وتفسير محمد بن جرير الطبري هو من أجلّ التفاسير وأعظمها قدرًا...”. وقال أيضًا: “وأما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين كمقاتل بن بكير والكلبي”. وقال مؤرّخ الإسلام الذهبي: “وله كتاب التفسير، لم يصنف أحد مثله”.

وقال عنه القفطي: “وصنف التصانيف الكبار، منها تفسير القرآن الذي لم يُرَ أكبر منه، ولا أكثر فوائد”. وقال السيوطي في الإتيان: “وكتابه أجلّ التفاسير وأعظمها... فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض، والإعراب والاستنباط، فهو يفوقها بذلك”. وقال الشيخ محمد الفاضل بن عاشور: “فكان جديرًا بالتفسير حين تناوله الطبري بتلك المشاركة الواسعة، وذلك التفنّن العجيب أن يبلغ به أوجه، وأن يستقر على الصورة الكاملة التي تجلت فيها منهجيته، وبرزت بها خصائصه مسيطرة على كل ما ظهر من بعده من تأليف لا تحصى في التفسير”. وقال أبو حامد الإسفراييني الفقيه: “لو سافر رجل إلى الصين حتى يحضّل تفسير ابن جرير، لم يكن كثيرًا”.

محنته مع الحنابلة

قام الإمام الطبري بتأليف كتاب ضخّم في اختلاف العلماء، ولم يذكر فيه الإمام أحمد بن حنبل على أساس أنه من كبار المحدثين، فظن الحنابلة أن الطبري قد تعمد ذلك للتقليل من شأن فقه الحنابلة، وثارت ثائرتهم عليه وشوشوا عليه في مجالسه، ونفروا الطلبة منه، وأقاموه بالقوة من حلقة الدرس، ومنعوه من الجلوس للتدريس، وحرّبوه ومنعوه من الخروج من بيته ورموه بالحجارة.

ولما نقل الإمام الطبري دروسه إلى بيته، حاصروا بيته ومنعوا طلاب العلم من الدخول عليه، وظل حبيسًا في بيته يعاني الاضطهاد الشديد، وكان قد جاوز الخامسة والثمانين وأنهكته السنون، حتى توفي رحمه الله، وبلغت المحنة أوجها ووصل التعصب والغلو إلى ذروته، عندما ظل الحنابلة على حصارهم لبيت الطبري حتى بعد أن بلغهم خبر وفاته، مما دفع أصحاب الطبري لأن يدفنوه في صحن داره برحبة يعقوب ببغداد.

وهكذا دفع التعصب المذهبي المقيت خصومه لأن يشيعوا عنه الأكاذيب والأباطيل ويلحقوا به صنوف الأذى والاضطهاد الشديد حتى مات محاصرًا مظلومًا مضطهدًا من الجهلة والمتعصبين.

وفاته



عاش الإمام الطبري راهبا في محراب العلم والعمل حتى جاءتة الوفاة ولا راداً لأمر الله. قال الخطيب: “واجتمع عليه (حال الجنابة) من لا يحصيهم عدداً إلا الله، وصُلِّيَ على قبره عدة شهور ليلاً ونهاراً، ورثاه خلق كثير من أهل الدين والأدب”. وكان ذلك في يوم 26 من شهر شوال سنة 310هـ / 923م على الأرجح، في عصر الخليفة العباسي المقتدر بالله، ودُفِن في داره الكائنة برحبة يعقوب ببغداد.

وقد قضى الإمام الطبري آخر أيامه في بيته حيث عاش في محراب العلم إلى أن لقي ربه، عن عمر يناهز الـ 85 سنة، وقد مات ولا زال في شعر رأسه ولحيته سواد كثير برواية ابن كثير، ودفن في داره ببغداد، وكانت جنازته حدثاً.

الإمام الطبري

<https://www.youtube.com/watch?v=vMXUid0EB5Q>